أصحاب الأخدود

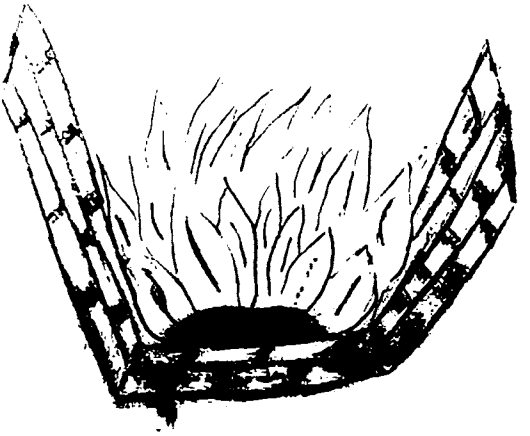

نسبهم

ذكر أبو الحسن الشباني في كتابه: أن ملك من ملوك حمير يقال له: ذو نواس، واسمه يوسف بن شرحبيل[1].

موقعهم الجغرافي

كان الأخدود بنجران [2]، وإلى الآن بقيت آثار الأخدود، ويعد الأخدود من الأماكن التاريخية في المملكة العربية السعودية

صفاتهم

قوة الايمان بالله

حياتهم

قال الله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١-١٠].

وعن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر، قال للملك: إني قد كبرت سني، وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلامًا فلأعلمه السحر. فدفع إليه غلامًا

(١). انظر: الكامل في التاريخ: أبو الحسن الشيباني (٣٣١/١).
(٢). انظر: المرجع السابق.

فكان يعلمه السحر، وكان بين الملك وبين الساحر راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك، فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك، فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينا هو ذات يوم، إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله، أم أمر الراهب. قال: فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها، ومضى فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ. فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء ويشفيهم.

وكان جليس للملك فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، ولك ما ها هنا أجمع. فقال: ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله ﷻ، فإن آمنت به، ودعوت الله شفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك، فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. قال: أنا؟ قال: لا. ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه، حتى دل على الغلام، فأتي به، فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء، قال: ما أشفي أنا أحدًا، إنما يشفي الله ﷻ،

قال: أنا؟ قال: لا، قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. قال: فأخذه أيضًا بالعذاب، ولم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه.

وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس، حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل، ووضع السهم في كبد القوس، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام. فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك، فحفر فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها. وقال: فكانوا يتعادون فيها، ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق»[1]. وكانت امرأة مؤمنة، وكان لها ثلاثة بنين: أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي، وإلا قتلتك أنت وأولادك. فأبت، فألقى ابنيها الكبيرين، فأبت، ثم أخذ الصغير ليلقيه، فهمت بالرجوع، قال لها الرضيع: يا أماه لا ترجعي عن دينك، لا بأس عليك. فألقاه، وألقاها في إثره.

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر، فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، وحدثني أيضًا بعض أهل نجران عن أهلها: أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها قريبًا من نجران. ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد، ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيميون. ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه، قالوا: رجل نزلها، فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر، يعلمهم السحر، فبعث الثامر ابنه عبدالله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر

(١). أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٩ رقم٣٠٠٥).

بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه، ويسمع منه، حتى أسلم، فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام، حتى إذا فقه فيه، جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه. وقال له: يا ابن أخي إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه.

والثامر أبو عبدالله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر، كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبدالله أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله اسمًا يعلمه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها، أوقد نارًا، ثم جعل يقذفها، قدحًا قدحًا، حتى إذا مر بالاسم الأعظم، قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها، لم تضره شيئا فأخذه، ثم أتى به صاحبه، فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم، الذي قد كتمه، فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، قال: أي ابن أخي قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبدالله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدًا به ضر، إلا قال: يا عبد الله أتوحد الله، وتدخل في ديني، وأدعو الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو له، فيشفى. حتى لم يبق بنجران أحد به ضر، إلا أتاه، فاتبعه على أمره، ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال: أفسدت عليَّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح على رأسه، فيقع إلى

الأرض ما به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران، بحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيلقى به فيها، فيخرج ليس به بأس، فلما غلبه، قال له عبدالله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلي، حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت عليَّ فقتلتني، قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبدالله بن الثامر، ثم ضربه بعصا في يده، فشجه شجة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب، وبعض أهل نجران عن عبدالله ابن الثامر، فالله أعلم أي ذلك كان.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخدوا الأخدود، وحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم، فقتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ففي ذي نواس، وجنده أنزل الله على رسوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج:٤-٥]، الآيات. وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم.

وقد زعم بعضهم: أن الأخدود وقع في العالم كثيرًا، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان عن عبدالرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان

قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، واتخذ أتونًا، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل في زمان بختنصر حين صنع الصنم، وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال، وصاحباه عزريا ومشايل، فأوقد لهم أتونًا، وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم بردًا وسلامًا، وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

وقال أسباط عن السدي في قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾. قال: كان الأخدود ثلاثة: خد بالشام، وخد بالعراق، وخد باليمن[1].

العبر والعظات المستفادة

قصة أصحاب الأخدود تحمل في ثناياها معان عظيمة، وفوائد جليلة وأفكارًا بناءة، فهي تؤكد على أهمية الدعوة لله بكل الطرق ولو بغلام صغير، لعله يقوم بما لم يقم به الكبار، ومن هذه المعاني:

١. أهمية تربية النشأ، فهم اللبنة الأولىٰ لبناء المجتمع، فبصلاحهم تصلح الأمة وتنهض من كبوتها.

(١). انظر: البداية والنهاية (٣/٢٣-٣٠)، والكامل في التاريخ (١/٣٣١-٣٣٢)، وتفسير ابن كثير (٨/٣٦٢-٣٧٣).

٢. وجود الشر في كل زمان ومكان، ومحاربة الصالحين وكتم أصواتهم، والطغاة هم الذين يتولون هذه المعركة لإسكات الحق، ولم يعلموا أن الله يدبر لدينه وعباده الصالحين.

٣. الثقة بالله، والدعاء المستمر، والايمان بأن نصر الله قادم.

٤. صفة الثبات علىٰ المبدأ، من أهم الصفات التي يجب أن يتمتع بها الإنسان المسلم في عصرنا هذا، و في كل العصور.